مقدّمة

جمعت هذه المقالات والمحاضرات بين دفتى كتاب واحد، على ما فيها من عدم التسلسل الزمنى أو الترابط الجغرافى. غير أنى - تجنباً للإعادة وتوخياً للتنسيق - حذفت نبذاً هنا، وأضفت نبذاً هناك، كما أدرجت المراجع والهوامش فى جدول موحد تسهيلا لمن يستزيد.

أما ضعف الترابط فهو طبيعى بحكم ظروف التأليف. لم يكن القصد وضع مؤلف فى تاريخ الطب، شامل الأحداث ومتسلسل الأبواب، ولذا اكتفيت بجمع شذرات نثرت على مر السنين. وقد يتلمس القارئ خيطاً خفيًا يصل ما بين هذه المناقلات، وقد يستقرئ منه سر التركيز فى أوائل تاريخ مهنة الطب. ولعل هذا الخيط هو تقفى جهد الإنسان المطرد وهو يحاول بادئ ذى بدء، تكييف نفسه فى بيئته، والاستجابة إلى تحدياتها استجابة إيجابية فعالة.

والعبرة فى مثل هذا الفضول ليست متعة ذهنية عابرة أو تغنياً بتقدم اليوم مع الشماتة بأخطاء الماضى، ولكنها عملية «جرد» لما اكتسبه الإنسان من الخبرة والمعرفة منذ أن وعى لنفسه، علّه يتعرف على العناصر التى تضمن استقامة تقدمه وإطراده.

والخبرة لا تكتسب بمجرد تعاقب السنوات والأحداث، وإلا كانت حجارة لندن - على حد قول برناردشو - أعلم من أحكم الحكماء. والخبرة لا تأتى إلا لمن يتعظ (والسعيد من اتعظ بغيره والشقى من اتعظ بنفسه)، وأتعس الناس وأخيبهم من لا يتعظ لا بنفسه ولا بغيره.

وإذا سمح لى بسوق مثل مستمد من الطب، قلت إن الاستجابة إلى الحياة تماثل الاستجابة إلى الصدمات والأمراض فإن الإصابة الأولى إما أن تكون قاتلة، وإما أن تشفى تماماً، وإما أن تترك عاهة عارضة أو مستديمة.

والشفاء على أنواع : فمنه ما يكسب حصانة ضد أية إصابة تالية، ومثله مثل الذهن المتزن الذى يكتسب من المحن خبرات يحل بها المشاكل إذا تكررت أو تشابهت.

ومنه ما لا يبنى أية مناعة فيظل الجسم معرضاً لنكسات قد تترك منفردة آثاراً طفيفة، ومجتمعة آثاراً شديدة. وأولئك الذين يبرءون على هذا النحو تتركز فى أذهانهم عقد لا تترك لهم مجالا للتفكير المستقيم.

ومنه أخيراً، ما يستجيب إلى أى تحد خارجى بردود تفوق الكفاية وتبلغ من الحدة والحجم ما يجعلها أمراضاً ذاتية، وتلك هى أمراض الحساسية والعلق والانفصام.

وإذا طبقنا هذا التقسيم على أنفسنا وجدنا أن منا قلة تستوعب أساليب العلوم الحديثة وتتخذ منها قدوة ومنهاجاً، وأن منا من يثور ضد قصور حاضره فيعمد إلى المفاخرة بأسلافه، وأن منا من يلتهم كل ما يقدم له على أنه علم، دون تمييز أو هضم، فلا يستطيع تمثيله، بل يحتفظ به كأنه زائدة التصقت به.

وفى هذه الاستجابة الأخيرة أضخم خطر يهددنا. إن حقيقة اليوم قد تكون غلط الغد، وقد ترتد فتكون حقيقة بعد الغد. وليست أعلى النظريات سوى فروض قابلة للاستئناف والنقض، وعندى أن أقل تجربة تبين وجه الضعف فيها تدعو إلى الابتهاج لا إلى الانزعاج، من حيث إنها تفتح منفذاً جديدًا نحو المعرفة، وها نحن نرى لافوازييه يكشف عن الأكسجين حين يجد أن أكسدة المعادن تزايد من وزنها، على حين أن النظرية السائدة كانت تؤكد ضياع عنصر وهمى (اللاهوب) كان يعد عندئذ مقوماً أساسيًّا من مقومات الأجسام الملتهبة. كما نرى أينشتين يلاحظ اختلافاً بين الواقع والحساب فى موقع كوكب من الكواكب، فيصل بهذا إلى نظرية النسبية التى أدت إلى أضخم الإنجازات كتفجير الذرة ومساواة الطاقة بالمادة وإخطاء هندسة إقليدس* التقليدية.

ومع هذا فإننا - بدافع كسل كامن فى أذهاننا - كثيراً ما نكتفى بقبول طب عصرنا، ونحن على يقين من أن أولادنا سوف يهزءون من أبهر نظرياتنا الراهنة. ومن هنا ضرورة العودة إلى تاريخ مهنتنا لنتفقد تعثرها كما يتفقد عالم النفس تطور ذهن الأطفال أو عمليات ذهن الإنسان البدائى ليتفهم ذهن البالغين منا.

* عاش حوالى عام ٣٠٠ قبل الميلاد، واستخدمت نظرياته الهندسية نحو ٢٥ قرناً.

وفى هذه الدراسة التاريخية خطر آخر يكمن فى حصرها على موضوع واحد كالطب فى ذاته.

إن الطبيعة - كما قدر لنا أن ندركها - هى مجموعة من الأحاسيس تصل إلى أعضاء حسّنا، ويتم تفسيرها فى ذهن يختار منها ما يختاره ويهمل منها ما يهمله، ويسوق تأويلها فى قنوات أعدت فيه بفضل خبرته وحفرت فيه بقوة ميوله وغرائزه.

ومن هنا اختلاف تصوير الفنانين للمرئيات، فواحد لا يرى إلا خطوطاً، وثان لا يعنى إلا بالمسطحات وثالث يهمه العمق، ورابع اللون، وخامس يحاول التعبير عن انطباعاته بأشكال مجردة، وهكذا، وهكذا، وإذا أخلص الفنان فى أدائه، فإن كل صورة من هذه الصور، ما هى إلا ترجمة المرئيات إلى لغته الخاصة، وقد قيل إن كل ترجمة ليست سوى خيانة.

ولننظر إلى اللحن الموسيقى، كما قد تراه جمهرة من الناس اختيروا دون تمييز. إن السمفونية للمستمع غير المتخصص مصدر انفعالات فنية أو عاطفية، أما للملحن فهى نغمات تتآلف حسب قواعد مجربة، وأما للفزيائى فهى موجات تتراكب وتتتابع وفق معادلات حسابية، كما أنها عند الفسيولوجى ذبذبة ترن ائتلافاً وأوتار الأذن الداخلية، وعند العازف طول أنابيب أو شد أوتار، وهى لصانع الآلة أخشاب وأشكال وأحجام وتجاويف. ثم أن المؤرخ قد يعنى بأصل اللحن الجغرافى، وبتاريخه، وبالظروف العاطفية أو الأجتماعية التى أدت إلى تأليفه، وبملحنين قدامى أثروا على تأليف اللحن.

والطب لا يختلف عن أى فن من حيث تباين أوجهه وعددها، فهو علم فى بحوثه، وفلسفة فى تفسيراته، وإنسانية ووجدان فى ممارسته، وتنظيم فى تطبيقة، وسياسة فى تدبير خدماته.

وهو بالإضافة إلى هذا خاضع للقوى التى تسيطر على حاضره، يستمد وحيه من القيم المعاصرة له. وهو يواجه اليوم ما لم يعرفه بالأمس، وهو خدمة الجماعة، وعلى الطبيب أن يواجه هذا الانقلاب ويوجهه. ولا شك فى أن مجاله يتسع للفيلسوف والفنان وعالم الرياضيات والكيمائى والاجتماعى وعالم الأحياء والفيزيائى والسياسى والشاعر والكاتب والمؤرخ وعالم البيئة وكل مفكر بل كل إنسان. ومن هنا ضرورة التجول حوله للاطلاع

على كامل أوجهه كما يفعل رواد الفضاء وهم يحاولون التقاط صور الأقمار الخفية عن أنظارنا.

والرجل قد يكون موهوباً فى عمل ما وغاشماً فى عمل آخر. فليس عليه إلا استغلال ما أوتى من المواهب على خير وجه. روى عن راهب طلب الرهبنة بعد أن أمضى حياته (بهلواناً) يجمع القوت من عرض لعباته فى الطريق العامة، وهو جاهل لا يعرف القراءة، بل يجهل كيف يصلى، روى أن رؤساءه فى الرهبنة لاحظوا علامات رضاء السماء عنه، وتقدمه فى سبل القداسة، مع جهله وسذاجته. فحاولوا معرفة سره وتتبعوا خطواته إلى أن وجدوه يوماً وفى وسط الليل، يقف على رأسه ويلعب ألعابه أمام الهيكل، ليقدم على سبيل العبادة قرباناً مما أوتى من المواهب الفريدة، فكانت ألعاب هذا البهلوان الساذج أقرب إلى رضاء السماء من صلوات العديد من زملائه فى الرهبنة وتمتمتهم، وبذلك ضرب مثلا لضرورة ممارسة المواهب التى أودعت فينا واستثمارها كبر شأنها أو صغر.

وبالإضافة إلى هذه الأمانة، هناك عهدة أخرى أؤتمنا عليها، وهى الجزء الضيق من العالم الذى نقضى فيه حياتنا، وهذه الحلقة الصغيرة التى نطوف فيها، على كل منا، كالخادم المخلص والوكيل الأمين، تسليمها عند نهاية مطافنا بها، فى حال أفضل مما كانت عليه. فلو أن كلا منا تقدم بمجتمعه خطوة الملة، لكانت بلادنا اليوم فى ذروة التقدم.

ترجحت أساليب العلم فى محاولته التقدم بين أقطاب مختلفة، هى البداهة، أو المنطق، أو التخيل، أو أى لون آخر من ألوان التفكير. غير أن أشد الخطر يكمن فى الأعتماد على لون واحد من تلك الألوان دون غيره.

والمنطق بمفرده أداة لا غنى عنها للتفكير السليم، وهو المحك المميز بين الاستنتاجات الصائبة وغيرها، وإنما هو حكم يحكم على صحة ما يعرض عليه ولا يضيف إليه شيئاً.

ثم إن أنفر من البداهة، فهى التى قالت إن الشمس تدور حول الأرض، وإن الأرض مسطحة لأنه لا يعقل أن يقف الناس على رءوسهم فى الجهة المقابلة لنا إذا كانت الأرض كروية. بل إن الأمر يبلغ بى أن أنزح إلى أية نظرية تناقض الظاهر لا عتقادى بأن ما يبدو لى «نشاز» لا يمكن أن يكون ثمرة نزوة، وأن غرابته لذاتها جديرة بالبحث فى مقوماته.

أما بصدد الخيال، فإننا نجد فى التاريخ أمثلة لا حصر لها لقفزات انطلقت من تخيلات غريبة أو غير معهودة لأن المعهود لا جديد فيه.

ويلاحظ العالم الفرنسى لوفرييه Leverrier، أن سير بعض الأفلاك لا يطابق مدارها المتوقع، وكان الفارق طفيفاً، يمكن إهماله وحسبانه خطأ جائزاً فى الملاحظات، ولكن (لوفرييه) يأبى إلا أن يخمن وجود فلك غير مرئى يدور فى جوار الكواكب المضطربة ويحدث اختلالا فى سيرها، ويحلل حسابياً مدى هذا الاختلال فيحدد موقع الفلك المفروض أو أوصافه. ثم يظل هذا الفلك فى عالم الخيال إلى أن يشاهده غيره بعد سنوات ويجده عند وصف (لوفرييه) له، وعندما يدعى فارضه لمشاهدته، يأبى قائلا إنه لا حاجة به إلى مشاهدته لأنه يعلم بوجوده علم اليقين، فكأنه رآه بعينى ذهنه.

وكذلك نجد نيوتن Newton، يتعجب لسقوط تفاحة من شجرة، فيفرض قانون الجاذبية العامة الذى يؤكد تجاذب كل الأجسام بعضها بعضاً ويحسب المعادلة التى تحدد قوى هذه الجاذبية، والجاذبية الأرضية قد تبدو لأذهاننا بديهية، غير داعية للتعجب والاستغراب، ولكننا، إذا نظرنا إليها فى شىء من التعمق، وجدناها تفرض وجود قوة تمارس بين جسمين لا رابطة بينهما، وتؤثر على بعد دون وساطة، كأنها شد بدون حبل. وهذه المسألة أى التأثير عن بعد، حار فى تفسيرها الفلاسفة والعلماء على السواء. وقد وضع لها أينشتاين أغرب نظرياته إذ فرض انعواج الفضاء بجوار كل جسم، وكيف ينعوج فضاء غير مادى؟

بل إننا نستطيع التأكيد بأن ملكة ترك الجماح للخيال والميل إلى الشاعرية فى التفكير هما من أهم مقومات الكشف العلمى. نرى عمر الخيام - أعلم علماء الجبر فى عصره - يقرض الشعر ويؤلف رباعياته الخالدة على الزمان. وكذلك تجد أرخيمدس - منذ ألفى سنة أو تزيد - يستشعر خفة أعضائه وهو مغمور فى ماء حمامه فيفرض أن الماء يدفع الأجسام إلى أعلى ويصل بهذا إلى نظرية تعد من أهم قوانين الفيزياء.

وفى عصرنا هذا يبنى الفيزيائيون الطبيعة على قوانين لا عقلية. كمبدأ (أقل جهد) الذى يؤكد أن أية ظاهرة طبيعية كالضوء مثلا تتبع خط «أقل جهد» فى سيرها عبر المواد المختلفة، وهذا قانون لا سبيل للعقل إلى تفسيره، وإن كان كامناً فى كل قوانين الطبيعة، وإن كان كذلك من الممكن استخلاص كل هذه القوانين منه.

وإذا انتقلنا إلى الرياضيات، رأينا حساب الكهرباء مبنيا على استعمال رقم $\sqrt{-1}$، وهو رقم تخيلي، هكذا والله أسماه الرياضيون، والمفروض أنهم أكثر الناس واقعية. والهندسة قائمة على رقم (ط) الذى يمثل نسبة المحيط إلى القطر، وهو رقم غير قابل للقياس وغير محدود حتى إذا استكملت آلاف الأرقام إلى اليمين، والرياضيات تستعمل ما سمتها رقاماً صمًّا أى غير عقلية، وهى أرقام كجذر رقم ٢ التربيعى، لا يمكن تحديدها.

ثم يتخيل هؤلاء الرياضيون أن هذه الأرقام التخيلية والصم، وغير القابلة للقياس لها كيان حقيق وإن كانت وهمية. ألا يفوق خيالهم خيال أخيل الشعراء؟

فهل علينا أن نسلم بأن الكون والميكانيكا ونظرية الموجات والكهرباء ترتكز كلها على قواعد غير تعقلية، ميتافيزيقية بحتة؟ وكيف نتعجب إذن من قول عالم الرياضيات بوانكاريه Poincaré : «ليس لنا أن نستغرب إحساسنا بالجمال أزاء عرض برهان نظرية هندسية، فإننا إذا فعلنا، أغفلنا ما ينتاب المرء من مشاعر الابتهاج الشبيه بالانجذاب التصوفى أمام تآلف الأرقام وتوافق الأشكال وأناقة الهندسة».

وهذا الوجد الذى يتحدث عنه بوانكاريه هو الشعور ذاته الذى يغرق فيه الشاعر أو الفنان لدى الاستماع إلى قصيدة رائعة أو مشاهدة منظر آخذ. وإنى لأذكر صديقاً مولعاً بالكيمياء حضر إلىّ يوماً وهو فى شدة الهياج وقد صرخ فى تو دخوله علىّ : «لقد كشف عن المعدن رقم ٨٥» فسألته : «أيدعو هذا إلى هذا الغلو فى الانفعال»؟ فأجابنى : «ألا تفقه شيئاً؟ إن وجود هذا المعدن فرض منذ سنوات لضرورة وجوده. وهاهى الملاحظة التجريبية ترسخ صواب الفرض، أليس هذا داعياً للفرح والتهليل؟».

إن العلميين لا ينظرون إلى الطبيعة نظرة غيرهم. فإنهم يستشعرون الجمال بمركب من الحواس، يجمع بين الإحساس بالانسجام الهندسى، وإدراك النسب الحسابية، وعناصر أخرى ترن فى أذهانهم وتهز مشاعرهم بقوى لا يدركها غيرهم. إنهم يرون فى مجموعة متباينة من المظاهر. كتلون فقاعة صابون أو روعة أجنحة الفراش أو جمال قوس قزح، أو لألأة الكواكب، أو النغمات الشجية، أو شاشة (التلفزيون) يرون فيها جميعاً وحدة

شاملة هى قوانين تداحل موجات حسابية بحتة لا ترتكز إلى مادة متموجة وبهذا يصلون إلى حقيقة كونية متكاملة تدخل على نفوسهم السرور والصفاء.

وإذا أردنا الوصول إلى هذا المنسوب من الإحساس والمعرفة، فعلينا ترهيف أذهاننا لجمال هذا الكون العجيب. وهذا لا يتأتى إلا بعدم الاستخفاف بأى اتجاه علمى، وبالنظر إلى القضايا من جملة وجوهها. وهذا بالتنقل من نظرة إلى نظرة، ومن تاريخ إلى تاريخ، ومن بلد إلى آخر، فإن من لا يغادر بلده أو عصره لا يعرف لا بلاده ولا عصره.

فإذا قدر لنا هذا، حققنا، تلقائيا، الواجب الذى فرضته علينا طبيعتنا الإنسانية، وهم تسليم أمانينا إلى من يحمل الشعلة من بعدنا فى حال أفضل مما تركت لنا عليه.

obeikandl.com

كلمة

الأستاذ الراحل دكتور محمد كامل حسين

أرسل الأستاذ الراحل الدكتور محمد كامل حسين بهذه الكلمة عند اطلاعه على هذا المقال الذى نشر أولا فى مجلة عالم الفكر الكويتيه: وهذا فى ١٩٧١/١/٢٦.

عزيزى بول، أهنئك على مقالتك «الطبيب الأزلى»، فهى من خير ما قرأت وأعجبنى بصفة خاصة الإطار الأدبى الذى وضعت فيه هذا القدر الهائل من المعلومات وهذا الـ «Tour D'Horizon» الواسع جدًّا جمع فى صعيد واحد معلومات لم تكن لتتسق فى غير هذا الاطار.

على أنى بلغت من الشيخوخة سنًّا ويأساً ما يجعلنى أعرّف الطبيب الأزلى أنه رجل يستخدم أشياء لا يعرفها، ليغير حالة لا يعرفها إلى حالة أخرى لا يعرفها وأرجو ألا تكون ثقتك فى الطب بلغت هذا الحد.

وأضيف إلى رأيك فى الكنية أن كثيراً من الأجانب عابوا على القرآن أنه سمى مريم العذراء أخت هارون وقالوا إن هذا خلط بين مريمين، والواقع أن أخت هارون كنية لكل من اسمها مريم، تخليداً لذكر أخت سيدنا موسى... ويخيل إلى أن هناك شيئًا يشبه الكنية بالروسية، ولكل رجل اسم خاص يناديه به من يريدون أن يظهروا له الاحترام، والكنية عند العرب احترام وكان لا يجوز أن ينادى الرجل بكنيته فى حضرة الخليفة... وسلامى الحار لك وابثك شوقى الشديد إلى الحديث معك فى الأمور العديدة. التى تهتم بها معاً

المخلص

obeikandl.com

الديباجة

الطبيب الأزلى

لقد شاهدت هواية تاريخ الطب وهى تنمو وتتأصل فى قلب صديق فى سنى، عرفته منذ طفولته، ثم أحببته وصادقته، ولازمنى ولازمته كأنى هو، والهوايات تنشأ دون وعى من تهواه، كأنها تنبت اتفاقاً على شكل نزوة حين، أو تسلية فنية، أو واجب مفروض، وقد تكون تجربة كبيضة الديك لا تعاد، أو يكثر تكرارها، وهى تغرس فى هدوء جذورها فى أعماق المرء، وتواصل مدها إلى كل ميدان من ميادين فكره إلى أن تحتله تماماً، لوقوعها فى تربة معدة، تتغذى منها وتغذوها، كما يتغذى النبات من الأرض ويغنيها.

بدأت قصة صديق بآلة تصوير، أولع بها فأمست لعبة فراغه، ما لبث أن شغلت جل باله وفتحت له، كسمسمة على بابا، عالم الفنون التصويرية والتشكيلية، إذ أخذ ينقل التماثيل والنقوش، ويستفسر معانيها وتواريخها، ومن ثم عنى بتاريخ الأدب وبسيرة الفن، وعن طريقها بالتاريخ عامة. ثم شاهد هواياته تنمو وتتفرع ويشتبك بعضها ببعض كالأشجار الاستوائية التى تدمج فروعها حتى تجعل منها كتلا صلبة متماسكة تسدل ظلها على الغابات، فغاص فى سحر الفن وفى فن السحر، وهو فى كل هذا يتفقد العنصر الإنسانى فيها، فانحدر إلى علوم الإنسان، ووجد - آخر مطافه - الطب، الذى يدمج الجسد والروح والشخص والبيئة فى صورة متكاملة للإنسان، وجده أقوم سبيل إلى المثل التى أشاد لها ترانس[1]، والتى اتخذ هو منها شعاراً: «إنى من البشر وما من شىء بشرى غريب عنى». فصهر كل ما أحبه فى معدن لمع كالمرآة فى ذهنه وعكس شعاعاً سفرت فى ضوئه أعماق لم يسبق له رؤيتها، وقد استمده من النظرة التاريخية التى تنير اليوم بشعلة الأمس.

كنت ذات يوم فى صحبته نطلع حسب عادتنا على بعض النصوص القديمة ونتجادل فى معانيها، إلى أن أعيانا التعب، وأحرقت عيوننا أبخرة اللفائف المحترقة، وأطبقت

جفوننا. وعندما فتحناها رأينا ألسنة السحب المتصاعدة من هرم لفائف التبغ المتراكمة، ترسم سيماء شخص جلس فى مواجهتنا فى هدوء، وكأنه ينتظر منا بدء الحديث. لم ندر كيف دخل ولا من أين أتى، شكله متموج وهندامه متغير تبعاً لنزوات الأبخرة، تعلو رأسه قلنسوة فرعونية تارة، وعمامة عربية تارة، أو قبعة الفرنجة تارة أخرى، وأوضح ما فى وجهه ابتسامة دمثة تنم على رقة وطيبة فى مزيج من السخرية التى لا تخلو من العطف والحنو.

سأله صديق: «من أنت؟».

فأجاب: «متى»

قلت: «إنما يسألك عن اسمك، وقد اقتحمت داره، فكيف تجيبه: متى؟».

أجاب بهدوء: «إنى الطبيب الأزلى الخالد، وإن كنت اليوم فلاناً والغد علاناً، فإن روحى هى روح الطب، وقلبى وذهنى لا يتبدلان. أليس عصركم هو الذى أضاف بعداً رابعاً إلى أبعادنا الثلاثة، ثم فسره بأنه الزمن؟ أتكتمل أية قضية إن لم يذكر سيرها الزمنى؟ إذا سألتنى عن لون السماء حق لى سؤالك: أتطلب لونها فى الصباح أم فى المساء؟ ولو استفهمتنى ارتفاع البحر أجبتك: «متى، أعند المد أم الجزر؟ لقد حملت أسماء شتى فى أزمنة مختلفة[٢]. كنت، منذ خمسين قرناً، طبيب الأسنان (حسى - رع) زميل (أمحتب) الذى أله الفرس والأغريق، ثم كنت «أيروى» طبيب العيون والأمعاء والشرج وحاكم العقارب، وألفت فناً فى الطب عندما كنت (نتجر حتب)، واتهمت عندما كنت (أيروى) فى مؤامرة لقلب رمسيس الثالث[٣]، وأعدت بناء مدرسة بأمر سيدى (دارا) بعد أن دمر قمبيز معابد مصر ومدارسها عندما عاد من حملته الفاشلة فى الجنوب وشاهد الاحتفال بعيد الحصاد فظن الشعب يبتهج لهزيمته[٤].

- كنت إذن (أدجاحور سنت)! لقد أعجبنى تمثالك فى متحف الفاتيكان (شكل ٣-٢٣) وقرأت وصف رحلتك المنقوش عليه. ولكن، ذكرت أنك كنت متخصصاً فى الأسنان، ثم فى أمراض العيون والبطن، وهذا قبل اليوم بأربعة آلاف سنة وتزيد، فهل بادر الأطباء يتخصصون منذ ذلك الوقت السحيق ونحن نعد التخصص تقدماً حديثاً؟ ثم ما معنى (حاكم العقارب)؟

ضحك وقال : « إننا، لعجزنا إزاء لسع العقارب ولدغ الثعابين، كنا نلجأ إلى الصلوات والدعاءات، وقد مارست هذا اللون من الطب اللاهوتى إلى جانب الطب التجريبى، ومن هنا جاء لقبى هذا، أما سبب التخصص المبكر فهو أن سر وحدة الجسم الآدمى، المبنية على اتصال أجزائه بوساطة الدم السائر فى الأوعية والقوى الجارية فى الأعصاب، كان خفيًّا عنا بعد، فقسمنا الجسم، تبعاً لشكله الخارجى، إلى رأس وبطن وقدم وعين وأسنان وما إليها، ولا يخفى عليكم أن هذه الصورة المتأصلة فى أذهاننا، وإن كانت أقرب إلى التعاريف اللفظية منها إلى الحقائق التشريحية، تتكشف بوضوح تام فى خلال الاضطرابات النفسية غير العضوية التى تصيب بالشلل أو فقدان الحس أشطاراً من الجسم تابعة لهذا التوزيع، وقد راق هذا التقسيم البديهى عيون أولئك الإغريق من المتأخرين الذين توهموا وجود روابط بين الكواكب والأطراف، تسيطر بحكمها الأولى على الثانية، وهى فكرة سادت عالم الطب حتى عهد النهضة وبعده، ومازال الكثيرون منكم آخذين بها، كما أنها شاعت بين طبقات الشعب غير المثقفة، التى استبدلت بالأفلاك القديسين والأولياء، فأسندت إلى هؤلاء شبه تخصص، ينفرد بموجبه كل منهم بمرض يشفيه.

قلت فى إعجاب :

إنك جمعت فى صورة واحدة مظاهر تبدو، أول وهلة، مستقلة، إذ أنى لم أتصور قط وجود أية علاقة بين الشلل الهيستيرى وتخصص الأطباء فى باكورة التاريخ، فقد أفهمتنى فى لحظة حقيقة فاتتنى سنين، وما دمت كريماً هذا الكرم بمعلوماتك، هل لى أن أسأل عن تاريخ وصول التخصص إلى أوجه؟ وهل كان له الشأن نفسه فى البلاد الأخرى؟

- عزيزى، إن تاريخ التخصص وازى خط سير النظريات الفسيولوجية، لأن الطب ما هو إلا ثمرة من ثمار عصره، يتغذى منه ويتلون به، يختلف بدو المرض فى عينه عند كل منعطف يسلكه. لقد حسبت القرون الوسطى المجذومين من الملعونين ونبذتهم من بين ذويهم، ولم ير إنسان عهد النهضة حرجاً من العدوى التناسلية، وتلون الدرن فى العصر الرومانتيكى بلون شاعرى أنيق، وفى صدر عصر الصناعة عدت الأمراض الصناعية إتاوة العمل الطبيعية.

علقت على هذا :

ولكل شعب ما هو جدير به من الطب.

قال :

أجل، ولا يفيده إلا ما يوائمه. إن فننا ينبع من أذهاننا وعقائدنا وأوهامنا، وكل ما أسماه فلاسفة الألمان نظرتنا الكونية Weltanschauung كإفراز منها، ولذا فإن التخصص العضوى لم يدم طويلا، وقد زال تماماً عندما انتشرت النظريات الجديدة التى صورت الجسم فى صورة وحدة متماسكة، وبالتالى لم يحظ التخصص عند أطباء الإغريق بالمكانة التى وصل إليها عند المصريين، لأن طبهم، كما اعتدنا تعريفه، هو إنتاج القرن السادس ق. م. أى عهد أبقراط، الذى تلا ذروة الطب المصرى بعشرة قرون، والذى دمج فلاسفة الإغريق فى غضونه أفكار (فثاغورس) بشأن قداسة الرقم ٤، فى نظريات أنبا دقليس، فتصوروا العالم مؤلفاً من أربعة أركان هى الماء والهواء والنار والتراب، متصفة بأربع خواص هى الرطوبة واليبس والبرودة والسخونة، وافتعلوا أربعة أخلاط خمنوا الجسم مكوناً منها، هى الدم والبلغم والصفراء والسوداء، وربطوها بالأركان الأربعة والكيفيات الأربع وادعوا أن نسبها تحدد الصحة أو المرض. فلم يكن فى هذا النظام المتماسك مجال لتقسيم الجسم تقسيماً قد نسميه «إقليميًّا». ومع ذلك فإن الشاب الإغريق - تبعاً لتصور كامن فى ذهن كل إنسان - كان يقدم القرابين لإله الطب اسقلابيوس على شكل الجزء المريض من الجسم غير مبال بنظريات فلاسفته.

وما دمنا نتحدث عن تأثير العقائد فى الطب فإن البابليين - بدافع من عقائدهم آمنوا ببلقنه[٦] الجسم ووزعوا أجزاءه على آلهة مختلفة، فكان السحرة يتلون تعاويذ تربط بين كل عضو وبين إله محدد.

- قل لى شيئاً، أيها الشيخ الجليل، عن نشأة الطب كما عاصرتها.

أجابنى : يا بنى يجدر بنا أولا أن نعرّف الطب، ما يعنيه اليوم، وما كان معناه فى مختلف الحقب. إنكم اليوم أعضاء مهنة تراقبها نقابة وتنظمها الدولة، وهما إذ تمنحان الطبيب سلطات خطيرة وحقوقاً واسعة تفرضان عليه الخضوع إلى امتحانات وقيود تكاد تكون دولية فى منسوبها ومعانيها.

أما فى الزمن الغابر فلم يكن الفيصل قد رسم بعد بين الطب وأضراب المعرفة الأخرى، ولم يكن الفارق جليًا بين الطبيب وغيره من المثقفين.

وإذا نظرنا إلى أهداف الطب نظرة واسعة، وجدناها تشمل بصفة أساسية حماية الفرد والمجتمع من كل ما يضر بسلامتهما الصحية، وإصلاح الأذى إذا ما أصابهما، وتلك العوامل المؤذية لم تحدد بالعدوى أو الجروح، ولكنها شملت كل انحراف عن نموذج مثالى سمى الصحة، وكذلك لم يحدد العلاج أو الوقاية بالجراحة والعقاقير ولكنهما شملا كل طريقة مجدية وفعالة.

قلت : وهل كان لكم إلى معرفة فاعليتها سبيل؟

قال : كنا نستنتجها عن الخبرة ونستقرئها من تصوراتنا لأسرار الكون. والنوع الأول قدم ألوانًا من العلاج تكاد تكون فطرية، مثل الراحة والحمية والتدفئة والمسهلات؛ والنوع الثانى اصطبغ بتفكيرنا، فأدخل السحر فى بابل، والمنطق فى اليونان، والخبرة فى الإسلام، والتجربة فى عصر النهضة.

قلت : إن هذا يبرر اعتقادى بأن دراسة العلوم غير الطبية فى عصر ما - كالقانون أو الفلسفة أو الدين - لا غنى عنها فى دراسة تاريخ مهنتنا. ولكن أفدنى أيها الأستاذ المبجل، ما كان حظ كل من الخبرة والتصور فى نشأة الطب؟ أبدأ عمليًا تجريبيًا تبعاً لمقتضيات الحياة اليومية، ولم يصطبغ بالأساليب الدينية والسحرية إلا بعد ما أفاق فضول ذهن الإنسان، أم بدأ بالسحر؟.

أجاب : إن أجد فى سؤالك تبسيطاً قد لا تتحمله حقيقة الواقع - فإن السحر والتجربة اندمجاً منذ أول أيامهما، بل إنهما كادا يترادفان. إذ أن كل الحضارات استهلت بعصر أسند قوى خفية إلى كل ما أحاط به من معالم وأحداث، وآمن بتحكمها فى كل صغيرة وكبيرة فى الكون، وكيف نعيب على الأجداد هذا وقد دفعوا إليه بحكم غريزتين :

الأولى : القلق من المجهول، وبالتالى الاطمئنان إلى أى تفسير له، والإيمان بالسببية المطلقة، مثال : لئن أصيب شخص فى خلال معركة، التساؤل عن السبب فى إصابته وسلام رفيقه، وبالتالى نسبة الضربة إلى توجيه متعمد، وهذا الاتجاه فى التفكير واضح فى الملحمات القديمة (كالأدسة)، حيث نشاهد الآلهة تحمى شخصاً فتدفع عنه السلاح،

وتسدد الطعنة إلى آخر فتلحق به الأذى.

ومن الأمثلة اليومية للسببية الزائفة عدّ يوم شؤماً إلى الأبد إذا حلت مصيبة فى اليوم عينه من الأسبوع مصادفة، أو عدّ الطير نذير شؤم إذا تبعت كارثة نعيقه.

أما الغريزة الثانية : فهى قابليتنا للإيحاء من وقع التأثيرات الخارجية كالرعد والموسيقا وقرع الطبول.

فسأله صديق :

- هلا تميز لنا بين طب المصريين وطب الإغريق وطب البابليين؟

- يمكن القول إجمالا، وبإيجاز، أن طب المصريين سيطرت عليه الخبرة، وطب الإغريق الفلسفة، وطب بابل السحر، وكان يحكم على الطبيب فى مصر بأمانته فى تطبيق التعاليم الرسمية، وفى اليونان بسلامة منطقه ومهارته المنطقية، وفى بابل بدرايته بالطوالع والفئول، وإنما تميز هذا الأخير بالقسوة فى العقاب، آخذاً بمبدأ المثل بالمثل، المصرح به رسميًّا فى قانون حامورابى[٨].

قال صديق : ما نزال نشاهد اليوم، بين أطبائنا، أمثلة من كل من هذه النماذج وكأن التاريخ يعيد نفسه دوريًّا.

قلت : بل إنه يجرى جرياً حلزونيًّا بين قطبين يتراوح بينهما، وإن كان الدوران على مستويات متباعدة، وهذان القطبان يمثلان نظريتين مختلفتين، ترجح الأولى أولية المزاج فى إحداث الأمراض، والثانية أولية البيئة. أو بتعبير آخر، أهمية التربة أو البذرة. فأين كان موضعكم من هذين القطبين؟

قال : إننا تصورنا - أول عهدنا بالطب - أن المرض يأتى نتيجة لعوامل دخيلة قد تكون أرواحاً أو حشرات أو ديداناً أو ما إليها، تقتحم هذه العناصر الجسم وتدخل أوعيته وتسرى فيها، فتحدث إما عوارض عامة كالحمى والاعياء، وإما ظواهر انبثائية كالخراريج والقرح والأورام[٩،١٠] ثم أن إغريق مدرسة قنيدوس[١١] اقتبسوا منا هذه الفكرة، وهى الآخذة بالعناصر المرضية السارية فى الجسم، وحولها بعدهم أساتذة مدرسة قو[١٢] التى نبغ فيها أبقراط، إلى عناصر طبيعية، فدمجوها فى صلب نظرياتهم

الرباعية التى أسلفنا ذكرها، وعرّفوا (المزاج) بأنه تابع لنسبة الأخلاط الأربعة فى الجسم، وأولوه المنزلة الأولى فى إعداد الجسم لهذا المرض أو ذاك، وبهذا انتقل مركز الثقل من البذرة إلى التربة.

تابع صديق الحديث فقال - وقد دارت اللولبة وجاء أمثال بيشا ولاينيك[١٣] فقارنوا الأعراض بالاحشاء، وفرشوف[١٤] الذى اعتمد على المجهر النظرى، فأنشأ علم الباثالوجيا الخلوية، فأهملت الأخلاط السائلة، واتجه النظر إلى الأنسجة الصلبة، ثم جاء باستور[١٥] الذى كشف عن الجراثيم، فأعيد العامل الدخيل إلى منزلته الأولى واستبدله بأرواحكم وديدانكم وحشراتكم، ونظر إلى المرض على أنه من فعل الجراثيم على الأنسجة.

قلت :

لم يمض زمن طويل قبل أن يقدر البعث للسوائل المرضية فى صورة مجددة، على أيدى أمثال فيدال[١٦] الذين دأبوا على تحليل السوائل تحليلا كيماويًا فحلت البولينا والسكر والكولسترول محل السوداء والصفراء والبلغم.

تمهل محادثنا ونظر إلينا نظرة غامضة وقال :

ولكنكم ما تزالون فى حيرة شديدة، أفى قدرتكم تعريف المرض، أى مرض من تلك الأمراض التى تكثر مشاهدتها؟ كيف تعرفون مرض التيفود الذى يسببه بشلوس إبرس؟ هل هو مجرد اقتحام هذا المكروب للجسم؟

- كلا، فإن الجرثومة قد تؤم الجسم وتأوى فيه سنين طويلة دون حدوث مرض ظاهر، كما فعلت فى (مارى التيفويدية) الطاهية الأمريكية التى تسببت فيما لا يقل عن ثلاث وخمسين حالة تيفود توفيت ثلاث منها دون أن تصاب هى بأى أذى.

- أهو صورة الحمى التيفودية؟

- كلا، فإن حميات مماثلة فى الشكل قد تصاحب إصابات بجراثيم أخرى، كما أن جرثومة إبرس قد تصحبها حالات تختلف عن الحمى التيفودية كل الاختلاف، كالخراريج أو التهاب السمحاق أو أنواع من الروماتزم أو التهاب حويصلة الصفراء.

قال صديق : عدنا إذن إلى أهمية التربة أو المزاج، الذى يكيف استجابة الجسم إلى

أى غزو أو اعتداء، وهذا يرجح ما ذهب إليه كرتشمر[١٧] وأمثاله ممن بوبوا طبائع الإنسان حسب شكله ونسب مقاييسه، وقد ثبتت صحة استنتاجهم إلى حد بعيد.

تحدانا محادثنا :

أتعد هذا جديداً ؟ لقد سبقكم الإغريق والرومان فى هذا الحقل وبوبوا أيضاً الأشكال، وربطوا بين كل من الشكل والطابع والمزاج والأحشاء والأمراض وبين الأجرام المهيمنة وقت الولادة. وها أنتم مازلتم تنعتون المعتوهين بالقمريين (Lunatics)، وتقولون عن كئيبى المزاج إنهم زحليون، وعن محبى السلطة وسريعى الغضب إنهم أسديون.

أعترض صديق كأنه فى حلم :

إن حدس الشعراء أصدق من تحقيق العلماء، لقد قال شيكسبير : «ليس العيب فى فلكك وإنما العيب فيك» وكأنه تنبأ بجزئيات نوايا الخلايا التى نسميها (الجينة) Genes، وهى الحاملة منذ لحظة تكوين الأجنة للصفات الوراثية، بفضل مراكز قوى تحويها هى التى تحدد كل مميزات الجسم، كلون العينين أو طول الذراعين، وهذا بوساطة خمائر تسيطر على التفاعلات الكيماوية، وقد يكون الكشف عنها ملتقى حاملى لواء الكيمياء بمعضدى سيطرة النسيج، ونهاية اللولبة التى حيرت الطب منذ نشأته، بانطباق قطبيها :

ضحك محاورنا ضحكة كاتمة :

أراكم تعيرون ماضينا أهمية لم يتبادر إلى أذهاننا إعارته مثلها، وقد راقبت جهودكم المضنية دون تفهم دوافعها، أتتطلعون حقًا إلى حقائق تاريخية ثابتة ؟

أجابه صديق :

أيها الزائر الجليل، إن على المؤرخ، إذا ارتفع إلى مستوى أهله إلى هذه التسمية، أن يستخدم كل الوسائل المتاحة له للحصول على بغيته، وألا يكتفى بجمع الأحداث وتواريخها، والاطلاع على النصوص والروايات، والتنقيب عن المبانى المندثرة والبقايا البشرية الهالكة وما إليها، وإنما عليه امتحان حصيلته فى أضواء مختلفة، كالخبير الذى يسلط على اللوحات الفنية الأشاعات السينية والبنفسجية وتحت الحمراء قبل البت فى أصالتها، أما الأضواء التى يجب علينا إعدادها لتسلطها على قضايانا، فهى تلك التى نستمدها من مميزات الحقبة التى نحن فى صددها، أى من الجو الذى سادها، وهو

يشمل العقائد الدينية، والأوضاع الاجتماعية، والإطارات السياسية، والمناخ الإقليمى وبشكل عام فلسفة العصر وبيئته.

قال :

أستحملون فى أنفسكم موسوعات مصنفة من العلم باللغات القديمة، وعلم الأديان، وتفسير النقوش والرسوم، والإنتاج الفنى، والبقايا البشرية والمنزلية، والقصص والروايات، مع ما فى كل هذه الأبواب من صعوبات ومعوقات تحول دون اجتيازها؟ إنه لم يغب عنى قط - على سبيل المثال - الاجتهاد فى نقل علمائكم للنصوص الهيروغليفية أو المسمارية إلى اللغات الحديثة، كيف يدعون الإحاطة بمدلولاتها وهم قلما يتفقون عليها، لقد ترجم إبل نبذة : «نزيف من قلفة ختان»[١٨] وأخرى : «علاج سقوط الرحم»[١٩] فى حين أن جرابو ترجمها : «نزف بسبب شوكة سنط»[٢٠] وعلاج لرفع ثدى المرأة[٢١]؟ إنى عندما نقلت فى القرن الخامس عشر ق.م. نسخة من المؤلف الذى أطلقتم عليه «بردية إدوين سميث»[٢٢] لأطلع عليها تلاميذى اضطررت إلى حشوها بهوامش تفسر العبارات القديمة التى كانت أهملت ونسيت معانيها بعد أن مضى على وضعها خمسة عشر قرنًا.

مددت يدى إلى خزانة الكتب وأخذت منها نسخة من هذه البردية :

أجل إنك علقت على الحالة السابعة : «إن حبل الفك هو مجموعة الأوتار التى تربط طرف الفك، وعلبة الرأس هى متوسط قحتها بالقرب من المخ، وقد شبهت بالعلبة»، وعلى الحالة الرابعة : «إن عبارة : أربطه فى مرساه» يعنى بها : دعه يلزم نظام حياته السابق دون وصف أى دواء» «وكأنى بامبرواز بارى[٢٣] يصرح بعدك بثلاثة الآف سنة : «إنى ضمدته والله أبرأه»، فإذا كنت تقمصت أيضا (بارى) قل لى، بالله، هل صحيح ما قاله كاتب عنك، إنك إذ دعيت لعلاج هنرى الثالث ملك فرنسا من الجرح البليغ الذى أصاب عينه فى أثناء مبارزة، قست عمق الجرح واختبرت خطورته بادخال عصا فى عين مجرم حكم عليه بسالموت، فى موضع جرح الملك وفى اتجاهه وعمقه[٢٤]؟

حول مجرى الحديث واستطرد قائلا :

وما أكثر ما أخطأتم فهمى! إن الألفاظ، كالأحياء، لها تاريخ طبيعى، تولد وتنمو وتتطور، وقد تفنى وتزول، ولكنكم تأخذونها على آخر معانيها. لها أكثر ما وقعتم فى الحيرة! خذ مثلا وصف الإغريق لحبة (زيا)Zea، وهى تعنى اليوم الذُّرة، وكانت عندهم الحنطة، وأنتم تعلمون أن الذرة لم تصل إلى بلادنا إلا عند عودة بحارة كولومبس من القارة الأمريكية، وكم من لفظة استعملت مجازًا أخذتموها على لفظيتها. هل من المعقول أن ندهك (سن الحمار) أو رأسه[٢٥] فى دهان أو نشربه فى شراب كما ادعى المترجمون المتمسكون بحرفية الكلام، فى حين أن سن الحمار وما إليها من التسميات الوصفية كانت أسماء نباتات؟ ما بالكم لو أن كاتبًا من القرن الثلاثين الميلادى ادعى أنكم تأكلون (عين الجمل) أو تستعملون النباتات التى أسماها الخيال الشعبى نشاشة الذباب Silene Rubella أودم الأخوين Dracaema cinnabari أولسان الفرس Daphne alexandreia أو غيرها من تلك التى أطلقتم عليها أسماء تشبيهية؟ هل فى استطاعة قارئ عادى قراءة (قانون) ابن سينا، أو (الحاوى) للرازى دون الرجوع إلى أمهات اللغة والمعاجم المتخصصة؟ إننا، نحن العرب، نعنى بالخوخ نوعًا من الفاكهة فى لبنان ونوعًا آخر فى مصر، إن كلام العرب من السعة بحيث لا يحيط به إلا نبى[٢٦] - حسب قول الفقهاء - وقد علق عليهم ابن فارس بقوله «هذا كلام حرى أن يكون صحيحا، وما بلغنا أن أحدًا ممن مضى ادعى حفظ اللغة كلها»، أضف إلى الصعوبات اللفظية الاصطلاحات اللغوية التى تختص بها كل لغة، كسنن العرب فى مخالفة ظاهر اللفظ معناه، وحذف أداة النفى، كقولهم «والله أفعل ذاك» تريد «لا أفعل»، وذكر الواحد والمراد الجمع، والعكس، والفرق بين ضدين بحركة، كقولهم: «يخفر» إذا نقض، من أخفر «ويخفر» إذا أجار، من خفر، واستعمال اللفظة لشيئين متضادين كقولهم الجون للأسود والأبيض، والرجاء للرغبة والخوف، والجلل للشىء الصغير والكبير، وأمثالها ملأت كتب الألغاز، ثم إنكم تفسرون الألفاظ بما لا علاقة له بأصلها، كزعمكم أن اسم منطقة «السيف» مقتبس من لفظة Cif[٢٧] وهى مختصر عبارة يستعملها موردو البضائع بالموانئ، على حين أن السيف اسم فصيح لساحل البحر.

- صدقت والله، لقد ورد علىّ مثل لهذه الصعوبات فى ترجمة إنجليزية لكتاب: «الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر» الذى وضعه موفق

الدين عبد اللطيف البغدادى نحو سنة ١٢٠٠م. فقد ورد فى المقال عن فيضان النيل وأثره على أرض مصر أنه «يأتيها طين أسود علك فيه دسومة كثيرة يسمى الإبليز» ويبدو أن المترجمين ظنوا الإبليز هو الإبريز فترجموه الذهب الحر[٢٨] فى حين أن الإبليز هو طمى النيل، ثم إن الاعتماد على التراجم والاقتباسات دون الرجوع إلى الأصول يخلد أخطاء المترجمين والمعلقين، وأفضل مثال لهذا ما لحق بنظريات عملاق الطب القديم، الفاضل جالينوس، منذ أن نشرها فى القرن الأول الميلادى، فقد عرضها حنين ابن إسحاق فى العهد العباسى على شكل، ثم ترجمها ليناكر Linacre ترجمة مباشرة من أصولها اليونانية على شكل آخر، واتضح من آخر تحقيق أجراه سيجل[٢٩] أن جالينوس أتهم ظلمًا بالوقوع فى عدة أخطاء، فقد نسب إليه القول بأن حركة الدم فى الأوعية تتم على شكل مد وجزر، وهذا مالم يجئ فى كتاباته، وقامت حملات عنيفة ضده آخذه عليه فرضه وجود مسام خفية فى حاجز القلب ينفذ عبرها الدم، وكل ما قاله فى هذا الصدد إن هذه المسام تكون ممرًا إضافيا لفائض الدم، وهو عندما فرض وجود مسام غير مرئية لم يشط أبعد من (هارفى) إذ فرض وجود واصلات بين الشرايين والأوردة لم تكن له إلى رؤيتها سبيل قبل اختراع ليونهوك[٣٠] المجهر النظرى، ثم أن صعوبات اللغة ليست العوائق الوحيدة التى يجابهها المؤرخون، فإنى كثيرًا ما اعترضت على تفسير علماء الآثار لبعض البقايا التى كان أحرى بهم استرشاد المختصين فيها، وقد درجت بعض الحكومات على تشكيل لجان تضم اختصاصات مختلفة على شكل (طواقم) من الباحثين، لتعرض عليهم كل ما يتوسم فيه علاقة بفنهم، ودعنى أذكر على سبيل المثال لما قد يقع فيه المؤرخون وصف دارسى Daressy عالم الآثار الفرنسى لنقش بمقبرة مريروكا بسقارة، يمثل صاغة يصوغون قلادات من الذهب، ويتميزون بقصر أطرافهم السفلى بالنسبة إلى طول جلوعهم. استغرب دارسى هذا الشذوذ لخبرته بمهارة فنانى هذا العهد، فجنح إلى أنهم قصدوا تمثيل الصاغة راكعين، ولكنهم تسرعوا فرسموا المائدة التى يعملون عليها قبل رسم أطرافهم، فشملت المجال المعد للأطراف، ولم يجدوا مفرًا من وضع الأطراف منبسطة فى مجال كان مخصصًا لها وهى منثنية، ومن هنا قصرها النسبى، غير أنه فاته - وكيف لا - إن الذراعين تميزتا بالقصر نفسه لأن أولئك الصاغة كانوا من الأقزام المصابين بعاهة (الأكوندروبلازيا) التى تتسم بقصر الأطراف لتوقف نموها فى سن مبكرة.

«أصبت يابنى وتشخيصك للعاهه سليم، كانت الأقزام تكلف بصياغة الحلى وبحفظ

الأمتعة والكنوز، لسهولة العثور عليهم إذا ما فروا بها.

اعترض صديق :

« إن خطر الوقوع فى عكس هذا الخطأ أكثر خطورة »، واتجه نحوى : « وقد وقعت أنت فيه. فقد يفسر الأطباء تفسيرًا طبيًّا ظاهرة ذات مدلول رمزى، إنك أسندت مياعة شكل الفرعون أخناتون (شكل ٣ - ٨) إلى خلل فى غدده[٣١]، كما ظنه ماسبيرو من قبلك امرأة، والحقيقة أن هذا الفرعون الموحد تجسم عقيدته، وهى أن إلهة (أتون) هو الخالق الأوحد، لم يشاركه فى الخلق غيره، فهو أبو الكون وأمه معًا، جمع فى نفسه خصب الذكور والإناث، فكان لا بد له - وهو صورة الإله المتجسدة - من تمثيل نفسه على شكل يجمع بين الجنسين ».

قلت :

هذا رأى فئة من علماء الآثار، ولكننا، معشر الأطباء، لن نصدقهم حتى يتم الكشف عن مومياته.

اختفت ابتسامة الزائر وغشت الكآبة وجهه :

لن يحدث هذا أبدًا. إن سيدى أخناتون كان أول من نادى بالتوحيد، وكان مصدر إيمان بنى إسرائيل، وناهض عبادة الآلهة التى تسمونها أصنامًا، وكان أقواهم آمون، وقد انتهك - وأسفاه - كهنة هذا الآله مومياته انتقامًا منه، وأعدموها لئلا يسمحوا له بالتمتع بحياته الثانية، ولهذا السبب ، ولهتكهم أغلب آثار عاصمته (تل العمارنة)[٣٢]، لن يتاح لكم الوصول إلى الحقائق كاملة أبدا.

وهنا سألته فى فضول وقلة لياقة :

وما الذى دعاكم إلى تحنيط الموتى ؟

أجابنى غاضبًا :

إنى مندهش لجهالتك، فضلا عن حماقتك. إنما حنطنا موتانا لإيماننا باستمرار حياتنا بعد الموت فى البيوت التى شيدناها لاستئناف عيشتنا على نمطها الأول، وهى التى أسميتموها أنتم مدافن وكنا نحن نطلق عليها « دور الخلود ». لم نوسوس قط بفكرة الموت -

كزعم بعضكم - وإنما بالحياة ومن ثم أهتمامنا بحفظ أجساد أهلنا، سليمة، لتقف أمام الإله صحيحة، ولتستمتع بملذات الحياة كاملة، وتستنشق صبا الشمال ليلا، وتتلذذ بها بحرارة الشمس نهارًا، وتستطعم ألوان الأطعمة المنقوشة على الجدران، وتنعم بحب الزوجات والأولاد إلى الأبد.

أجبت :

- إن لكل عادة غريبة سببًا معقولا، لقد وصل اهتمامكم هذا إلى استبدال أطراف صناعية بأطراف الموتى المنزوعة، وإلى تركيب الجبائر على الأذرع الميتة إذا كسرها (الحانوتية)، وكنا نجهل الدافع الى سلوككم الذى، أقل ما يقال عنه إنه يبدو غريبًا. ولكن الأدهى فى هذا أن هذه العادة، التى كانت طقسًا دينيًّا بحتًا، أفاد منها الطب فوائد غير متوقعة، فإن لف الجثث بالأربطة بطرق فى غاية الفن درّب فئة من الناس تخصصوا فى الأربطة، فعاونوا الأطباء فى تجبير الكسور والخلوع عند الأحياء كما كانوا يفعلون بالأموات، وقد ذكر هذا فى بردية إدوين سميث.

عدت وفتحت البردية وقرأت :

« إن الغطاء الذى يستعمله الطبيب هو رباط موجود بين أيدى المحنطين »، وإلى هذا فإن اعتياد فتح البطون أرشد إلى مواضع الأحشاء وأشكالها، وأسهم فى رفع الحظر عن تشريح الموتى فى عهد البطالمة.

قال :

أجل لم تقم السلطات الإسكندرية صعوبات عندما قمنا مع زميلى هيروفلس[٣٣] وإيرازستراتس[٣٤] بإجراء الصفات التشريحية والتجارب على الأعصاب والعضلات، وهى التى مكنتنا من تصحيح أخطاء الذين كانوا يحرقون موتاهم أو يحجمون عن تشريحها ظنًّا منهم أنه انتهاك لتعاليم الدين، كما أن مقابلة إصابات الأحشاء بالأعراض المرضية رجحت كفة القائلين بأن المرض مبنى على أسس عضوية.

قلت :

وفيما يخصنا، فإننا ندين لعادة التحنيط بمعلوماتنا عن حالتكم الصحية، لأن البقايا

البشرية تفشى بأمانة خالصة أسرار الحضارات المنصرمة، لو أنها لا تتعرض للتلف، ولذا فإن معرفتنا لأمراض الماضى تكاد تقتصر على معرفة أمراض العظام والكسور وما استعمل فى سبيل علاجها من أربطة وجبائر، ومع ذلك فإن تشخيصها ليس بالأمر السهل بعد أن نخر فيها الدهر، وهو يثير مناقشات حادة بين أخصائى العلم الذى أطلق عليه (أخيرًا باليوباثوجى) Palaeopathology أى علم أمراض الأحاثة والآثار، حيث نراهم يتجادلون فى مؤتمراتهم حول سبب تكاثف العظام التى كشف عنها فى هذه الجبانة أو تلك، أهو الزهرى، أو الجذام، أو مرض فى الدم، أو التهاب غير نوعى، أو ورم؟ وحول تاريخ أول ما وصل الزهرى إلى قارتنا، أَوَفَد عليها هدية من أمريكا بواساطة بحارة كولومبس، أم كان متوطنًا عندنا من قبل؟

أما فيما يخص عهدكم، فإننا أكثر دراية بحالتكم الصحية لحفظكم الأنسجة الرخوة فى حال تسمح بتفحصها على أدق وجه، وليس بالمجهر النظرى فحسب، وإنما بالمجهر الألكترونى الذى وقفنا على أدق دخائل الخلايا، كالميتوخوندريا، وقد أظهر روفر[٣٥] فيها، بفضل احتفاظ الأنسجة بهذه الحال الجيدة، بويضات البلهارسيا، وآثار تصلب الشرايين، فضلا عن أمراض أخرى، وعرفنا أن رمسيس الخامس توفى عقب مرض الجدرى، وأن الملكة نفرتارى والفراعنة أمنوفس الثالث وسيتى الأول ورمسيس الثانى كانوا صلعًا، والحق يقال إننا عرفنا بفضلكم عن حالة الفراعنة الصحية ما لا نعرفه عن ملوك القرن الحالى. وما دمنا فى ذكر عادات نستغربها إن لم نجد لها حوافز معقولة، فاسمح لى أن أستفسر عن أمر عادة أخرى نشمئز لها، وهى الزواج بين الإخوة والأخوات.

أعاد آخر حديثى الغضب إلى محيا محادثى بعد أن كان أزاله اعترافى بفضل التحنيط علينا.

- إنك ما تزال تحكم علينا بمنطق آخر القرن العشرين، اعلم أيها الشاب الغرير، أن نساءنا كن يتمتعن فى مجتمعنا بمراكز أرفع مما تتمتع به نساؤكم فى أكثر بلادكم حضارة وتقدمًا، إنهن كن يشاركننا تسالينا ومشغولياتنا، ويصاحبننا فى رحلات القنص وصيد الأسماك، وفى الولائم والاستقبالات الرسمية، وكان لبعضهن شأن خطير فى إدارة دفة الدولة، منهن (حاتشبسوت)[٣٦]، التى جمعت بين قوة الرجال ودهاء النساء وفتنتهن، وانتزعت الصولجان من يدى تحتمس الثالث واستولت على الحكم، والملكة

نيتوكريس[٣٧]، التى حكمت مصر وانتقمت لأخيها شر انتقام، والملكة (تيتى)، التى سيطرت على ابنها أخناتون والتى بلغ ولع زوجها بها - وهو المترف المزواج أمنوفيس الثالث - إلى حد حفر بركة واسعة خصصها لنزهاتها المائية، وتوزيع جعران نقش عليه هذا الحادث لحفظ ذكراه، وكل سيدات الأسرة الطيبية اللاتى لعبن دورًا فذًّا فى الأحداث الهامة التى انتهت بتحرير مصر من حكم الهكسوس، ولعل الملكة التى نالت أعظم صيت هى (عح - حتب) زوج (سقنرع) بطل الحملة التى طردت المغتصبين، والتى ورد على شاهدها بمعبد كرنك أنها هى التى ضمت صفوف عسكر مصر وأخمدت الثورة. وكانت الوراثة - أحيانا كثيرة - تئول عن طريق النساء، لأن الأم عدت وصلة اللالة وواهبة الحياة، إذ كانت عقيدة أسلافنا - بادئ ذى بدء - أن الذكر ما هو إلا مبدأ منبه لأنقسام البويضة ونموها، وقد جهل بعض البدائيين علاقة العملية الجنسية بالحمل جهلا تامًّا، وانصرفوا إلى أن المرأة قد تلقح من الهواء أو الجن أو أرواح الأجداد .

أضفت :

أو من شظية شجرة جسدت شخصًا، كما روى فى قصة الأخوين[٣٨]، وما تزال بعض القبائل المتخلفة تؤمن بمثل هذه العقائد، وتحجب الصبيات من ملقحات مزعومة كالأرواح والريح والأعاصير والحيوانات البرية.

استطرد :

ومع ذلك فقد بكرنا إلى دور الذكور فى التكاثر، حتى أن بعض أميراتنا كالأميرة (إيدوت) كانت تلقب بـ (ابنة الملك التى من جسده)[٣٩]، وإنما لما للكهنة المحافظين من نفوذ، تحجرت تقاليدنا، وأصبح الزواج من الأخوات محبوبًا لهدفه إلى أمرين : أولهما . الاحتفاظ بالإرث من الوقوع فى أيد غريبة، وثانيهما : ضمان انحدار السلالة الملكية من أصلها الإلهى، إذ أن الإله كان أصل الأسر المالكة ومصدرها للحقة فى الملك، ونتيجة لهذه الاعتبارات قيد حق الجلوس على العرش بالزواج من أميرة منحدرة من أصل ملكى عن طريق الملكات، لا عن طريق الأماء، أو الأميرات القريبه التى كان القصر الملكى مكتظًّا بها، وهذا حتى يتحقق فى الأولاد النسب إلى الإله. فكان لزامًا على فرعون، وإن كان ابن الملك - الزواج من أخت أنجبتها الملكة الكبيرة، وكانت تسمى الزوجة

الكبرى، وإلى هذا فإن الصبيان والصبيات كانوا يربون تربية منفصلة فلم تنشأ بينهم مشاعر الأخوة التى استنكرتم من أجلها هذا النوع من الصلات.

قلت :

إن مثل هذه العادات ما يزال ساريًا فى بعض أنحاء العالم، دون أن ندرك دوافعها التى بينتها لنا بالعودة إلى الماضى، إن أحداث الحضارة ليست مظاهر عابرة تنشأ فى مكان ما أو زمان ما، ثم تنقطع وتفنى، وإنما هى سلسلة، تطبع كل حلقة منها أثرًا عميقًا فى الحلقة التالية، وهذا الأثر يبدو على صعيدين، الفردى والجماعى، فيحق لنا إذن دراسة هذه الآثار لتعيننا على تحرى بعض نواحى التفكير الإنسانى.

والمرء يولد شيخًا بتاريخ أسلافه، ويتبع فى تكوينه الخطوات التى مروا بها، وقد يتوقف نموه عند حد يماثل مرحلة من هذه المراحل، أوينتكص إليها، ومن ثم تبدو عليه علامات عدم الوئام الاجتماعى التى تتراوح - حسب مرحلة تخلفه - بين الشذوذ المقبول والاضطراب الذهنى الكامل أو الجنون، وكلما تقدمت حضارتنا زاد عدد الذين لايقدرون على اللحاق بها، ومن هنا الازدياد فى عدد المستشفيات التى تعالج فيها الاضطرابات النفسية. وقد تسنى لعلماء تحليل النفس أمثال فرويد ويونج، تفسير عمليات الذهن الباطن باعتباره عودة إلى تفكير الإنسان البدائى، وهذا بتطبيق المشاهدات الفولكلورية على مشاهدات تتناول سلوك المرضى الموسوسين، أو تفكير الأطفال، أو بعض مظاهر التفكير اللاوعى كالأحلام والأوهام، وبالعكس فقد أمكنهم تفهم عمليات الذهن البدائى بمقارنتها بها فى الأطفال والشواذ، ولذا فإن العالم بعلوم الإنسان (الأنثروبولوجيا) قد يكون أقدر على تفسير النصوص القديمة أو العادات الغابرة من زميله عالم اللغات.

وإذا اعتبرنا الطب، وجدنا وسائل التشخيص والعلاج القديمة ما تزال تمارس فى قرانا، وبين الشعوب التى لم تُهد إلى العلم بعد، ودعنى أضرب مثلين من طرائق مذكورة فى بردية أبرس، وتسلسل استعمالها دون انقطاع من القرن الخامس عشر ق. م. إلى الطب الشعبى اليوم عن طريق الإغريق والقرون الوسطى الأوربية والعرب، هى تشخيص الحمل وجنس الجنين بملاحظة فعل بول الحامل فى بعض البذور، وهو ما يزال يمارس فى الأناضول(٤٠، ٤١)، وعلاج بعض أمراض النساء بوساطة دم الحيض الذى شاهدنا

استعماله بين بدو جزيرة سيناء(٤٢)، ومايزال جاريًا فى بعض القرى الأوربية، بل إن مثل هذه العقائد والعادات ما يزال فاشيًا فى فئة ممن يدعون ثقافة فائقة، على أنهم يضعون الإيمان بالعجب والمعجزات فوق العلم المحقق.

على أن المنهج (الفولكلورى) يسهل على من انغمس فى حياة الشعب موضوع دراسته منذ طفولته، فى حين أنه يعسر على المستشرقين، بحكم (أوربيتهم) التى تبعدهم عنه، بل قد تؤدى بهم إلى التخبط وارتكاب أخطاء جسيمة فى تأويل مسائل غابت عنهم وإن كانت عندنا بديهية. خذ مثلا ما ورد من عالمين تناولا موضوعًا واحدًا، هو ترجمة ابن النفيس. فإن ما يرهوف(٤٣) المستشرق الألمانى الذى أمضى قسطًا طويلا من حياته بمصر، تشكك فى تسمية هذا العالم (أبو الحسن)، لأنه لم يتزوج البتة ولم ينجب ابنًا يسمى (الحسن)، وكاد الكاتب الإسبانى (دل أجوا)(٤٤) ينفى حقيقة تاريخيته، ويؤكد أنه شخص خيالى، لأن اسمه ورد فى بعض المخطوطات (على)، وفى الأخرى (أبو الحسن). ومن البديهى أن سبب تعثرهم كان جهلهم عادة الكنى التى لم تكن لشعب غير العرب.

سألنى محدثى : أفدنى عن هذه العادة.

أجبته : إن الذى دعا العرب إلى الكنى هو الإجلال عن التصريح بالاسم، وهذه السنة، وهى من مفاخرهم، لم يخصوا بها إلا ذوى الشرف من قومهم - وقل من مشاهير الإسلام من ليست له كنية.

تمتم صديق : أكنيه حين أناديه لأكرمه ولا ألقبه والسوءة اللقب(٤٥)، قهقه زائرنا وقال : ألا ترى أنك، حين تصرح بصعوبة لغتكم، تؤكد شكوكى؟ أين تجدون إذن المصفاة التى تفصل بين الحبوب والعصف فى أقوال هؤلاء المؤرخين وما هم إلا رواة يبتغون - أولا وآخرًا - أسر مستمعيهم بعجائب يزعمون أنهم شاهدوها. أتصدق تلك الرواية الساذجة التى رواها هيرودوت عن سيدى فرعون إذ زعم أن العمى أصابه عقابًا على تجاسره على النيل إذ قذف رمحًا وسط دوامته وسخطة لإفراط فيضانه، وأن وحيًا جاءه بعد مضى عشر سنوات بأنه سوف يسترد بصره إذا غسل عينيه ببول امرأة لم تجتمع البتة إلا بزوجها، فجرب بول زوجته ثم بول كثيرات من السيدات، ولما عاد إليه بصره أحرق جميع السيدات اللاتى جربهن، حاشا تلك التى أبصر بعد الاغتسال ببولها فاتخذها زوجًا له(٤٦) ؟

- إن هذه القصة تمثل حقًا مالا يستطيع العقل تصديقه، وهناك رواية أخرى من رواياته كذبتها القرائن وهى أن بابل لم تعرف مهنة الطب، وأن المرضى كانوا يعرضون بها فى قارعة الطريق، لعل أحدًا من المارة يوصى بعلاج(٤٦ب)، مع أن الأطباء كونوا بها مهنة موضوعة تحت رعاية الدولة وأن أختام بعض هؤلاء الأطباء وجدت وهى تذكر أسماءهم، فكيف جاءت تلك الروايات على لسان هيرودوت وقد مجده المؤرخون واسموه (أبا التاريخ)؟

- يابنى؛ لاينجو أحد - مهما اشتدت شخصيته - من تأثير التيارات السياسية والمصالح العنصرية، ولم يخلص هيرودوت من الدعاية السيئة التى نشرها بنو إسرائيل حول سيرة مولاى.

- هذا رأى أستاذنا الدكتور أحمد بدوى(٤٦ج) الذى رجح أن سيدك كان فرعون «الخروج».

أشار الشيخ إلى رف من أرفف المكتبة وقال: أرى عندك كتاب «هيرودوت يتحدث عن مصر»، الذى أصدره هذا العالم بمقدمة ثمينة. دعنى أتلو عليك ما كتبه بعد أن أغدق عليه الإطراء ووصفه بأنه «ملأ الدنيا وشغل الناس»: ما أكثر ماخدع هيرودوت المؤرخون بين أيدى التراجمة كما يخدع السائحون اليوم، وما أكثر ما ظهرت بساطة هيرودوت حين صدق ما جاء منهم... ومن المحقق أن هيرودوت قد خدع فيما سمع من روايات الأدلاء والتراجمة.. ليس من السهل علينا أن نمضى فى تصديق هيرودوت دون أن نتصور حوائل من الشك لامناص من الوقوف عندها».

هذا، وإن كانت أمانة أحمد بدوى العلمية، أملت عليه التشكك حتى فى إنصاف حكمه إذ أضاف: الله يشهد أن الشك لم يثر فى نفسى بالنسبة (هيرودوت) وحده ولكن بالنسبة لكثيرين غيره، وقد يكون سبب ذلك هو طول النظر فى تاريخ وطنى الطويل، وما عانى أسلافنا وعانينا نحن من غدر المستعمرين قديمًا وحديثًا.

وهنا تدخل صديق وقال: وما رأيكم فى سترابو الذى يعد ثبتًا من إثبات الجغرافيا التاريخية، والذى بعد أن أكد أن سنة الختان نشأت فى مصر، زعم أن بنى إسرائيل

أخذوا عنها عادق ختان الصبيان وخفض البنات، مع علمنا علم اليقين بأن اليهود لم يخفضوا بناتهم البتة(٤٧) ؟

لم يجبه عن سؤاله وكأن الحديث فى الأمور الدينية حرم عليه، فأسرعت لرفع حرجه :

إن حذرنا من القدامى لا يقل عنه ممن هم أقل قدمًا، كيف نوفق بين إجلال الدهر لابن سينا ورأى البغدادى فيه، إذ صرح بأنه كلما أمعن فى كتب ابن سينا ازداد فيها زهادة. . وأن أقوى من أصله ابن سينا بكتابه فى الصنعة الذى تم بها فلسفته التى لا تزداد بالتمام إلا نقصًا(٤٨) ؟

تكاثفت الغيوم المتصاعدة من اللفائف وأطبقت على الشيخ ستارًا أخفاه عنا لحظة، ثم أسفرت عن خطوط أخذت ترسم وجهًا نحيفًا وعينين ثاقبتين وعمامة مقلمة ضخمة.

- إنه قال عنى هذا وإنما أوتى بالمثل، وقد أثرت فى حياة أخرى إلى حدة لسانه فى (طبقات الأطباء)، وإن كنت قد توخيت الخفة والرقة اللتين تليقان بعالم كان صديق جدى وأستاذ والدى وعمى.

أجبته فى لهفة : قل لى، أفادك الله، إن كنت تجسدت فى ابن أبى أصيبعة، فما سبب إغفالك ابن النفيس فى مصنفك الثمين الذى لاغنى عنه فى معرفة طب الإسلام وأطبائه ؟ أحقيق ما رواه (ما يرهوف) من أن وتيرة وقعت بينكما فأردت الانتقام منه بعدم ذكر اسمه، وعدم ذكر الأسماء كان من سنن كهنة المصريين وملوكهم إذا ماأرادوا محو ذكر أعدائهم ؟

عادت إليه سيماؤه الفرعونية لحظة وقال : السر فى هذا أن الكلام لم يكن فى نظرنا أداة اتصال فحسب، ولكننا كنا نعده قوة كونية خالقة، وكنا نؤمن بأن الاسم هو المسمى، وأن محوه يبيد صاحبه فيمنعه عن استئناف الحياة بعد الوفاة، وهذا ما فعله كهنة آمون بأخناتون، وتحتمس الثالث وبحتشبسوت. ولكن، ما أسرع استنتاجاتكم وما أحمقها !

وهنا عاد إليه الهندام العربى : بل إن ذكرت ابن النفيس، وكيف لا أفعل وقد

عرفته وزاملته بدمشق ثم بالقاهرة قبل أن أغادر أرض مصر قاصدًا صفد. إلا أن ما قلته عن القرشى - كما كنا نسميه أحيانًا - جاء ضمن جزء من مذكراتى لم يرد على (مولر) ناشر أول طبعة عرفت العالم بمؤلفى، وقد وفق أخيرًا الباحث السورى يوسف العش إلى الكشف فى المكتبة الظاهرية بدمشق عن الأشتات الناقصة فبرأنى من هذه الفرية(٤٩).

وما أن انتهى من هذا الحديث حتى رأيناه يكبر حتى ملأ ميدان نظرنا، وإذا بالرازى يجلس تلقاءنا ويشكو فى مرارة: لقد أعتاد منتحلو لقب المؤرخين - فى سذاجة وقد يكون فى سوء نية - نقل أغرب الروايات. فلقد حكى ابن خلكان، مقتبسًا من ابن جلجل، أنى كنت صنفت للمنصور كتابًا فى إثبات صناعة الكيمياء(٥٠) فأعجبه وحيانى بألف دينار، وطلب إلىّ أن أخرج ما ذكرته فى الكتاب إلى الفعل، وأحضر لى كل ما أحتاجه من آلات وعقاقير، وما يليق بالصناعة كاملا، ثم أننى عجزت عن إنجاز عملى وأن المنصور قال لى: ما أعتقدت أن حكيمًا يرضى بتخليد الكذب فى كتب ينسبها إلى الحكمة ويشغل بها قلوب الناس، وحمل السوط على رأسى، وأمر بأن أضرب بالكتاب على رأسى حتى يتقطع، وكان ذلك الضرب السبب المزعوم فى نزول الماء فى عينى وفقدانى البصر.

أفاق صديق من تأملات انغمس فيها كالغريق فى المحيط وقال:

علمتنى الأيام رد أية رواية لا تسندها القرائن والبراهين، حتى إذا زعم راويها أنه عاينها بنفسه. لقد كنت أعمل - منذ ثمان وثلاثين سنة - بقرية متاخمة للقناطر الخيرية بقرب القاهرة، أتوجه إليها صباحًا وأعود منها مساءً، وحدث أن منطاد «جراف زبلين» زار القاهرة خلال طوافه الإعلامى وهبط بمكان معد له بالصحراء لمدة ساعات معدودة، وغداة هذا اليوم ذهبت إلى القرية واجتمعت فيها كعادتى بالأعيان، منهم العمدة وشيخ التجار ورئيس الكتبة، وأنصت فى إعجاب لا يفوقه إلا تعجبى وذهولى، إلى رواية المنطاد، وقد أصبحت على ألسنتهم أسطورة، وفحواها أن أهل القرية شاهدوا المنطاد وهو يحوم فوقهم، ثم وهو يطوف على سطح النيل، ويثب من فوق القناطر لمتابعة رحلته النهرية، وأكدوا أنهم رأوه بأعينهم يقلع من فوق سطح النهر إلى السماء، ثم يهبط على اليابسة ليعود إلى القاهرة على الطريق الزراعية، فاورتنى عندئذ فكرة مقلقة، وهى أن

مثل هذه الشهادة من قبل أعيان القرية وسلطاتها كانت فى العصور المنصرمة تدون فى السجلات الرسمية، وتبلغ للسلطات المركزية، وتدخل صلب التاريخ. أما أن الخيال الجماعى يصل إلى هذا الصعيد من الإبداع والابتكار بعد وقوع الحادث بساعات، فهذا ما يشفع (لهيرودوت) وابن خلكان وغيرهما، إذ نقلوا نوادر حكيت بعد حدوثها بقرون.

قلت :

أهى سذاجة منهم حقًا؟ أم هل هناك دوافع أخرى تحفز الرواة إلى افتعال قصصهم؟ لقد عرفنا حافزًا منها وهو التشهير السياسى، وآخر هو الرغبة فى جذب إعجاب الجماهير، ولكن هناك ما هو أخطر، وهو الأنانية وانتحال أقوال الغير للاعتداد بالنفس، وأبرز بطل فى هذا المضمار كان قسطنطين الأفريقى الذى رحل من شمال أفريقيا إلى جنوب إيطاليا محملا بمؤلفات العرب والإغريق، وترجمها إلى اللاتينية دون ذكر أصولها، فاكتسب شهرة اغتصبها من غيره، وعد زمنًا طويلا جهبذًا من عمالقة الطب(٥١).

اعترض محادثنا :

لاتنس أن الأمانة العلمية لم تكن من مميزات هذه العصور، ولا من متطلبات التصنيف، ولا أن الفضل لقسطنطين فى بعث الطب فى سالرنو بجنوب إيطاليا، وفى زرع بذرة نشرت طلعها إلى سائر إيطاليا وإلى مونبلى فى فرنسا، فأنتجت الزاد الذى غذّى النهضة الطبية الأوربية، والغريب أن عدم التقيد بذكر المراجع استغل استغلالا عكسيًا، فإن الكثيرين من الكتاب دأبوا على إسناد أقوالهم الشخصية إلى مشاهير الأسلاف لدعم نظرياتهم، أو للتمويه بسعة ثقافتهم، كما تنحلون اليوم أسماء جحا أو أبى نواس أو (ج. ب. شو) فى نكاتكم لإثارة ضحك مستمعيكم.

أضفت :

إن هذا اللون من الأنانية الفردية لا يكاد يحسب له حساب إذا قورن بما هو أدهى وأمر، وهو نوع من الاعتداد الطائفى أو العنصرى الذى يتخاطف لقم الشهرة ليغدو بها صيت مواطنية مهما كانت تفاهتهم، فيحرف التاريخ بطرق علمية مزيفة. وقد أخذت هذه الظاهرة تبرز حديثًا على شكل يشير إلى حملة دعائية منظمة، دخلتها حوافز نبتت

من الحال السياسية الراهنة، وهى شبيهة بتلك التى أدت منذ ثلاثين قرنًا إلى ابتكار رواية عمى فرعون، وقد استهدفت هذه الهجمات أخيرًا الطب الإسلامى، فادعى بعضهم أن ألم صفحاته كانت من إنتاج غير العرب.

قاطعنى صديق :

إن لهذا النوع من التاريخ الملتزم، أو الموجه - على نمط الأدب الملتزم والموجة - دوافع قوية معروفة، ولكن ما بالكم فى إنكار عروبة بعض العرب - وهم عرب، إما بحكم أصلهم أو بحكم دينهم أو لغتهم أو حضارتهم أو بيئتهم - أمثال ابن سينا والرازى، للنيل من الطب الإسلامى.

قال محاورنا وقد ازدادت عمامته وضوحًا وبهاءً :

لهم ذريعة يتحججون بها فى نكران مآثر الطب الإسلامى، وهى أن هذا الطب لم يكن إسلاميًا، إذا عنى بهذه التسمية أننا، كلنا، كنا ندين بالإسلام، ولم يكن عربيًا، إذا قصد بهذا أننا كلنا كنا من أبناء شبه جزيرة العرب، وما أوهى هذه الحجة فإن ازدهار العلوم والفنون خارج شبه جزيرة العرب، وعلى أيد غير عربية فى صدر الإسلام، لم يحدث إلا بفضل هذا الدين الإلهى الذى أخصب الكفاءات العقيمة، وكشف العيون المطموسة، وجمع فى روضته الطيبة وتحت رعايته المتنورة ثمار كل الأجناس، وزهور كل الأديان، لما فيه من سماح حرر البشر من الحبال الأزلية التى كبلت الفكر من قبله. ألم يأمر الأمبراطور قسطنطين بقصر دراسة مؤلفات أرسطو على أبوابها الأولى وتحريم ما يلى (الصور البلاغية) ؟ ألم نهرب - نحن معشر الفلاسفة والأطباء - من الإسكندرية ومن أثينا لتضييق الخناق علينا؟ ثم ألم يهبّ لنا بنو أمية ومن بعدهم العباسيون الجو الملائم للإنتاج ؟ هل فرق الخلفاء بين أطبائهم المسلمين والنصارى واليهود والمجوس والصابئة، وقد سمح النبى عليه الصلاة والسلام باستشارة الأطباء ولو من غير المسلمين، إذ يروى أنه لما مرض سعد بن أبى وقاص فى حجة الوداع عاده النبى وقال له « إنى لأرجو أن يشفيك الله حتى يضر بك قوم وينتفع آخرون »، ثم قال للحارث بن كلدة « عالج سعدًا مما به » والحارث على غير دين الإسلام، إن هؤلاء المضللين المغالطين يتناسون حقيقة أكيدة وهى أننا، لولا الإسلام، ما استطعنا صقل أزهى حضارة شاهدها العالم.

أطبق علينا سكون كثيف هنيهة، ثم أشرق وجهه عن ابتسامة فضول، وبعد تردد قصير تشجع فقال بسرعة وفى نفس واحد:

أراكم تمضون الليالى فى دراسة ماضى مهنتنا، وتقفون عليها قدرًا وفيرًا من جهودكم، هل لى أن أستفهمكم الفائدة التى تتوقعونها منها، وهى أصبحت ضياع وقت ومشغلة عقيمة بعد التقدم الذى أحرزه فننا فى القرن الماضى - وقد قيل إن عدد العلميين فى خلال خمسين سنة مضت فاق عددهم منذ بدء التاريخ، لقد كان هدفنا، نحن، من قراءة المؤلفات القديمة البحث عن أصول العلم، لاعتقادنا أنه أوتى أسلافنا كاملا ثم تناقص، أما أنتم فما هو عذركم فى نفض غبار المكتبات؟ أفيدونى، أفادكم الله، هل تجدون فى التاريخ متعة مرضية مردها إلى العودة إلى طفولتكم للتهرب من أعباء سنيكم الرشيدة؟ أم هى أناقة ذهنية تبهرون بها غيركم؟ أو اعتداد بالماضى لتعويض فراغ الحاضر، كشأن (أولاد الذوات) الذين لا مفخرة لهم إلا فى ذكر أجدادهم؟ ما هى حجتكم فى جعلها علمًا مستقلا ذا نظم ومناهج ومؤلفات ومؤتمرات خاصة به؟ هل تتوقعون العثور على معلومات جديدة، أم تبتغون منها التعالى على الأسلاف؟

تعجبت من طول هذه المداعاة وشدتها وقلت:

أيها الأستاذ الجليل، حاشى أن أهزأ بما وصلتم إليه من المعرفة وأتعالى عليكم، ليس دور المؤرخ الحكم على صواب النظريات العلمية أو خطئها، وحسبه أن يضعها بين ما سبقها وما لحق بها، ليحدد دورها فى تكوين الفكر البشرى، وليتعرف على ماضيه، وبالتالى على نفسه، كما نصحه سقراط عندما قال لأحد مريديه «اعرف نفسك».

لاحرج عليكم إن كنتم أقمتم نظريات خطأها الزمن، وما النظريات سوى محاولات، لا معدى عن افتراضها، لضم حصيلة المعلومات المجمعة فى صورة موحدة، على أن يقام البرهان لها أو ضدها بمحك الاختبار، أما فائدتها فهى أنها تكون قاعدة لفروض جديدة تستحث الباحث إلى ابتداع مزيد من التجارب للبرهان عليها، فإذا ظهرت المتناقضات وجب إهمالها وتشييد بناء جديد يوفق بين كل المعطيات، وهكذا تثير حلقة لا تنطبق إلا بالوصول إلى الحق، إذا قدر للإنسان يومًا أن يصل إليه.

وهنا اعترضنى صديق وقال : ومع ذلك فكم من نظرية مجانبة للحقيقة أدت إلى كشوف جديدة وقامت بخدمات جليلة. إن حضارتنا وكل إنجازاتنا قد بنتها فروض أدركنا اليوم إدراك اليقين بطلانها، وقد أرغمنا على إهمالها التقدم ذاته الذى هى خلفته، وما أشك فى أن أبهر نظرياتنا التى نتباهى بها، سيرغمنا ما ستخلفه من التقدم على ركنها على رف مهملات التاريخ، وقد محونا من أذهاننا حتى تلك التأملات التى كنا أرسخنا عليها تصورنا لأركان الكون، فقد أجبرتنا نظرية الكم (Quantum)، التى تقسم شتى مظاهر الطاقة إلى أقدار محددة لا تقبل التجزئة، إلى استبدال صورة جديدة بتلك التى كانت ترسم الكون على شكل متصل قابل لتقسيم لا نهاية له؛ وشتتت الفيزياء الحديثة الذرة، التى كنا عددناها غير قابلة للقسمة أو للتحويل فبنينا عليها الكيمياء التقليدية، كما أتاحت تحويل المعادن الذى لم يكن بأذهاننا إلى قبوله سبيل فى ظل النظريات القديمة؛ وأنكر العلم الحديث وجود الجوهر الذى سماه الفيزيائيون (أثير)، وهو قوام ميكانيكا الأمواج التى وصلت بعلوم الضوء والإشعاع إلى ما وصلت إليه، فلم يستطع العلماء تبرير موقفهم السابق إلا بالتصريح بأن الموجات المزعومة إنما كانت أنسب تصوير للمعادلات الحسابية التى تحكم أغلب خواص الطاقة.

ثم ليس الغرض من جهودنا الوقوف على معلومات جديدة وإن كنا نجد أحياناً فى كنف الماضى أفكاراً تبدو طريفة لأنها وقعت فترة فى طى النسيان.

أما إذا كنا أسمينا هوايتنا (تاريخ الأخطاء)، فإننا لم نطلق عليها هذه التسمية لنسخر منها، وإنما لتأكيد قيمتها التعليمية، فمن مأثور الحكم « السعيد من اتعظ بغيره » والطب، شأنه فى هذا شأن سائر العلوم المعتمدة على الخبرة، حرى بأن يتخذ من هذه الحكمة شعاراً ونبراساً.

قال : وما الطب فى رأيك ؟

قلت ؛ إن الطب ملتقى، يتقابل عنده إنسانان، كل منهما ثمرة عصره، وهما الطبيب والعليل، وقد خضعت العلاقات التى ربطت بينهما لموضع كل منهما من القوى الدينية والاجتماعية والاقتصادية المعاصرة له، وتاريخ هذه العلاقات هو تاريخ الطب، وإننا عندما نتحدث عن العليل نعنيه على شكليه الفردى والجماعى، وفى كلا الحالتين تتيح معرفة

ماضيه استقراء مستقبله والتخطيط له إذا وضعت أحداثه الماضية موضع الاحداثيات الرياضية التى تجيز معرفة بعضها التكهن بالمجهول منها، ورسم مخطط بيانى كامل لها. ولذا فإن حرمان الطالب من إدراك حظ النظريات المتقلب، ينطوى على الإجحاف بحقه وبحق العلم، إذ إن تلقين العلم على أنه حقيقة ثابتة يجمد الذهن ويغلق أبواب التقدم.

وإذا انتقلنا من الفرد إلى الجماعة، فإن الحاجة إلى الخبرات المكتنزة فى طى التاريخ أمس وألزم، وبخاصة حين نستهدف إزالة مرض متوطن، أو الوقاية من وباء أو التكهن بسيره.

قال محادثنا وقد تموجت ملامحه قبل أن تستقر فى شكل ضباط روسى:

لو أن قائد جيوشنا الكونت ألكسى أندريفتش أركشييف، وزير دفاع القيصر إسكندر لمس هذه الحقيقة عند ظهور الكوليرا على الحدود بين روسيا والهند، لتجنب القول: «إنه لأيسر للجمال أن تنفذ من سم الخياط من أن تخترق الكوليرا صفوفنا» وجنب بلاده هذا الوباء، ولو أن مولاى القيصر نقولا أدركها لتريث قبل أن يدفع بجيوشه من بلاده الموبوءة نحو أوربا لإخماد الثورات المندلعة بها، ورحم مئات الآلاف من موت أثيم، من بينهم قائدان من كبار قواده، المارشال ديبتش، والأمير قسطنطين اللذان، بسبب إصابتهما أطلق الجيش على الكوليرا (مرض المارشالات)[٥٢].

طمس بعينيه وكأنه استعرض شريط ذكرياته: «لقد حولت الأمراض مجرى التاريخ بدفع أقوى من أحكام المشرعين وبطش الأباطرة، وهذا ما يجب درجه ليس فى مناهج كليات الطب فحسب، وإنما فى دراسات كليات الأقتصاد والكليات الحربية، لقد شاهدت بعينى هزيمة (سنخريب) ملك آشور فى القرن الثامن ق.م.، عندما انقضت علينا الفئران ونحن معسكرون على منافذ مصر، وقرضت الجعب والأقواس وخمائل الدروع، فولينا الأدبار وسقط منا الكثيرون[٤٦]؛ وصاحبت جند (سبارتا)، عندما فككنا، برغم أنوفنا، حصار أثينا خوفاً من العدوى بالطاعون الذى فتك بها[٥٣]؛ وقد أهلك الاسقربوط الأساطيل، وحال دون كشف القارات المجهولة قروناً عديدة؛ وفشل أول مشروع فتح قناة باناما بسبب تفشى الحمى بين العاملين به؛ وفتكت الالتهابات المعوية بجيوش الحلفاء فى جاليبولى إبان الحرب العالمية الأولى؛ وكنت أجهل وأنا أعاود جورج الثالث ملك إنجلترا، أن شذوذه السياسى، وقيل جنونه، الذى أدى إلى ضياع مستعمراته

واستقلال الولايات المتحدة، نتج عن (كروموزوم) مرضى ورثه من آبائه يسبب ما تطلقون عليه اليوم اسم (بورفيريا)[٥٤]؛ ولو أن الملوك والساسة وهبوا نكهة من الحاسة التاريخية، لأحجموا عن الزواج من الأقارب وحالوا بهذا دون انحلال سلالاتهم وضياع إمبراطورياتهم، وهو أمر غير معالم العالم وأسهم، دون شك، فى دفع العالم نحو الديمقراطية.

قال صديق ساخراً :

لم تنقص هذه الحاسة المستعمرين الذين تغلبوا على قاطنى أمريكا الأصليين بتوزيع ثياب مرضاهم المصابين بالجدرى عليهم، فأهلكوهم بسلاح أفتك من الرماح والمدافع.

صمتنا هنيهة غائصين فى أفكارنا ثم رفع محادثنا السكون الذى خيم على الغرفة المعبأة بالدخان :

يا بنى من أهل فنى، إنكم تقفون موقفاً «يطيب فيه النظر إلى الغد كما يطيب فيه النظر إلى الأمس، فلا يفرد فيه الفخر بالآباء دون الأمل فى الأبناء»[٥٥]، إنى أشيد بجولاتكم فى ماضى أشعل شعلة ضئيلة حولتموها إلى نور متلألئ وهاج، وأثنى بوفائكم لأجيال من الأطباء تناقلوا عبئاً كنتم عليه أقدر منهم، إلا أنه إذا خفت ناحية منه، تثاقلت نواحيه الأخرى، إن المرض لن يزول ولن ينتهى ولن يغلب، وإنما كالعدو المكير، ينتقل من حصن إلى آخر، إذا زنقتموه فى جحر، شن عليكم هجماته من جحر آخر، فإن كنتم تغلبتم على الأمراض المعدية التى كانت تفتك بنا، فقد خلقت لكم أمراض الشيخوخة والسرطان مشاكل علاجية واجتماعية أخطر شأناً وأعقد حلا. لقد كهلت قطان أكثر البلاد حضارة، وحملت الدول أعباء لن تقدر عليها فى المستقبل فعليكم الآن، فضلا عن المرض، دراسة الإنسان بأكمله على أنه جزء من بيئته، فقد قال فرشوف إن انتشار الأوبئة مظهر من مظاهر عدم التواؤم الاجتماعى والثقافى وخلل فى توازنها. وهو الذى أفصح برأيه بأن الطب علم اجتماعى ولن يتم إلا بالتغلب على عناصر ثقافية سلبية طالما أخرت المشروعات الصحية؛ لا تنسوا المعارضات الشديدة من قبل أصحاب الأملاك على مشاريع صرف الفضلات ومن قبل أصحاب الصناعات على إجراءات منع تلوث الهواء والمياه لأنها تتعارض مع حقوق الملكية الخاصة، وقد أصبحت هذه المشاكل على رأس قائمة المسائل التى تستوجب حلولا جذرية.

فإذا أردتم الاتعاظ بالماضى وجب عليكم التذرع بقدر كبير من الصبر والمثابرة. لقد أصبح البحث عن تاريخنا عملا معقداً، جعل من كل متحف معهد بحوث يحوى قبساً من التحف وأطباقاً من المختبرات، وقد تعددت وسائل البحث، واقتبست لها كل الطرائق المستحدثة فضلا عن الفنون المعهودة، وما إليها من الطرائق التى ما يبرح الإنسان يبتكرها (انظر مقال الختام)، على ألا تنسوا العنصر البشرى فيها، فإن العلم إذا فصل عن الأدب أمسى آليًا غاشماً، كما أن الأدب إذا سحب منه قوامه العلمى كان دوى طبل أجوف.... لا تنقضى سنة واحدة دون إعادة فتح ملفات قضايا كان يحسب أمرها منهيًا، أنها هواية، إذا استخدمت استخداماً نفعيًا، لإرساء قواعد تنطلقون منها إلى مستقبل أفضل، وإذا وضعت التذكر فى خدمة الآمال البشرية، إنها هواية جديرة بكل احترام وبكامل العناية.. إنها دراسة لا نهاية لها.

وما أن تلفظ بهذه الكلمات الأخيرة حتى سمعنا دوى زجاج ينكسر، ولفحتنا ريح هبت فجأة من النوافذ، وغمرتنا أوراق متطايرة، وإذا بعينى تنفتح على سحب ذائبة، حاملة معها وجهًا محبوبًا، مخلفة وراءها ابتسامة عطف، ابتسامة بدون وجه، كالموجات التى سحب الفيزيائيون من تحتها قوامها من الأثير.